بتاريخ 29 جمادى الاول 1445
الاوامر

الجلسة 39

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ
الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينْ وَصَلَى الله عَلَىٰ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينْ

سلسلةُ الأبحاث المُترابطَةِ
بدايةَ مبحث الطلب و الإرادة قد تحدّثنا بأن أساسَ هذا النقاش قد نبعَ بسببِ موضوع الكلام النفسيّ ثمّ قد تطرّقنا إلى هويّتِه و استعرضنا الآراءَ حوله ثمّ أقررنا بالتغاير ما بين الطلب و الإرادة من دون أن نعترِف بتماميّة الكلام النفسيّ، ثم من ذاك المُنطلَق قد قادنا النقاشُ إلى تنقيحِ الكلام النفسيّ و لأجل ذلك قد احتَجنا إلى تفسير مغزى الكلام بأنه قديم أو حادث ثمّ انجرَّ بنا المَقام إلى المبحث الكلاميّ حول نوعيّة تكلّم الله تعالى ثمّ انطرحت مسألةُ الصفات الإلهيّة كتكلّم الباري فبَسَطنا الحوار بأن الصفاتِ الذاتيةَ هي عينُ الذات الإلهيّ، و ذلك وفقاً للبرهان العقليّ الذي قد استلهمَ هذه المُعطياتِ من الأدلة النقليّة (فالأوامر الشرعية ألطاف إلى الأوامر العقليّة).

الانخراطُ ضمنَ بحث التكلُّم الإلهيّ
و يبدو نيّراً أن سِمةَ "تكلُّمِ الباري تعالى" تُعدّ من مُواصَفاتِ اللهِ تعالى حيث يَنُصّ قائلاً: وكلّم اللهُ موسى تكليماً.[1] و كذا الآية: و ماكان لبشرٍ أن يُكلّمَه اللهُ إلا وحياً أو مِن وراءِ حجابٍ أو يُرسلَ رسولاً فيُوحِيَ بإذنه ما يَشاء إنه عليٌ حكيم.[2]

فمن المحتمل أن يُعدّ الاستثناءُ المذكور مُنقطعاً بحيث لا يَتكلّم اللهُ مع البشر كحوارِهِمُ الاعتياديّةِ بل تَنحصر صياغةُ كلامه تعالى إما بالوحي أو بالحجاب المكنون أو بإرسال الرسول، و هذه العناصر الثلاثةُ تَختلفُ سنخيّتُها مع الكلام البشريّ، فعليه إن مكالمةَ الله مع نبيّه موسى قد تحقّق بالوحي أو بالحجاب حيث يُصرّح تعالى: فلمّا أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمنِ في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله ربّ العالمين. فقد بان لك أن مُكالَمتَه تعالى لم يكُ من نمط التكلم المُصطلحِ العرفيّ عبرَ الألفاظ، و قد تكاثَرَتِ الاستثناءاتُ المنقطعةُ ضمن القرآن الكريم.

بينما جُمهورُ المفسّرين قد استظهروا منها الاستثناءَ المتّصلَ بحيث تُعدّ تلك العناصر الثلاثةُ إحدى أشكال التكلّم الإلهيّ فيندرجُ تكلُّمه تعالى ضمن الوحيِ أو الحجابِ أو إرسال الرسول.

فبالتالي، إنّ سِمةَ التكلّم تعدّ من أوصاف الفعل حيث يَخلُق الله الارتعاشات الصوتيّة بفعله تعالى وذلك وفقاً للروايات و لمُعتقد المتكلّمين، بينما الفلاسفةُ قد أدرَجته:

1. أحياناً ضمن صفاتِ الذات من بُعدٍ محدّد.

2. و أحياناً ضمن صفات الفعل من جهةِ أن المكالمةَ تتقوّم بتواجد خطاب مع المخاطب لكي يَتحقّق التكلّم نظير الرازقيّة و الخالقيّة، حيث تَتجلّيان بخلق المَرزوق و المَخلوق، فامتداداً لذلك استحضرَ الكافي ضمن بَابِ صِفَاتِ الذَّاتِ روايةً مُتناسِبةً في هذا الحقل:

عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ الطَّيَالِسِيِّ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيىٰ، عَنِ ابْنِ مُسْكَانَ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللّٰهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَقُولُ: «لَمْ يَزَلِ اللّٰهُ ـ عَزَّ وَ جَلَّ ـ رَبَّنَا، وَ الْعِلْمُ ذَاتُهُ وَ لَا مَعْلُومَ، وَ السَّمْعُ ذَاتُهُ وَ لَا مَسْمُوعَ، وَ الْبَصَرُ ذَاتُهُ وَ لَا مُبْصَرَ، وَ الْقُدْرَةُ ذَاتُهُ وَ لَا مَقْدُورَ، فَلَمَّا أَحْدَثَ الْأَشْيَاءَ وَ كَانَ الْمَعْلُومُ، وَقَعَ الْعِلْمُ مِنْهُ عَلَى الْمَعْلُومِ، وَ السَّمْعُ عَلَى الْمَسْمُوعِ، وَ الْبَصَرُ عَلَى الْمُبْصَرِ، وَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْمَقْدُورِ». قَالَ: قُلْتُ: فَلَمْ يَزَلِ اللّٰهُ مُتَحَرِّكاً؟ قَالَ: فَقَالَ: «تَعَالَى اللّٰهُ، إِنَّ الْحَرَكَةَ صِفَةٌ مُحْدَثَةٌ بِالْفِعْلِ». قَالَ: قُلْتُ: فَلَمْ يَزَلِ اللّٰهُ مُتَكَلِّماً؟ قَالَ: فَقَالَ: «إِنَّ الْكَلَامَ صِفَةٌ مُحْدَثَةٌ لَيْسَتْ بِأَزَلِيَّةٍ، كَانَ اللّٰهُ ـ عَزَّ وَ جَلَّ ـ وَ لَا مُتَكَلِّمَ».[3]

واتّجاهاً مع هذه الرواية قد سار المتكلّمون مسارَ أن عمليّةَ التكلّمِ تعدّ من فئةِ الأفعال لا من صفات الذات، و لهذا تُشاهد العلامةَ الحليَّ الشارحَ لمقالة الشيخ نصيرالدين الطوسيّ، قائلاً:

المسألة السادسة في أنه تعالى متكلم:

قال: و عمومية قدرتِه تدل على ثبوت الكلام و النفسانيُّ غير معقول.

أقول: ذهب المسلمون كافة إلى أنه تعالى متكلم و اختلفوا في معناه فعند المعتزلة أنه تعالى أوجد حروفا و أصواتا في أجسام جمادية دالة على المراد و قالت الأشاعرة أنه متكلم بمعنى أنه قام بذاته معنى غير العلم و الإرادة و غيرهما من الصفات تدل عليها العبارات و هو الكلام النفساني و هو عندهم معنى واحد ليس بأمر و لا نهي و لا خبر و لا غير ذلك من أساليب الكلام و المصنف ـ رحمه اللهـ حينئذ استدل على ثبوت الكلام بالمعنى الأول ـبما تقدم من كونه تعالى قادرا على كل مقدورـ لا شك في إمكان خلق أصوات في أجسام تدل على المراد و قد اتفقت المعتزلة و الأشاعرة على إمكان هذا، لكن الأشاعرة أثبتوا معنى آخر و المعتزلة نفوا هذا المعنى لأنه غير معقول إذ لا يُعقل ثبوت معنى غير العلم ليس بأمر و لا نهي و لا خبر و لا استخبار و هو قديم و التصديق موقوف على التصور.[4]

إذن فخالقُ الحروف و الأصواتِ هو الله تعالى، فبالتالي ستُصبحُ فائدةُ التكلّمِ هو إبرازُ ما في الضمير فعندئذ سيُطلَقُ عليه "الكلام" فالله تعالى قد أبدى الغائباتِ و أوضحَ الحقائقَ ببركةِ الوحي إلى العقل الأوّل و هو خاتم المرسلين، إذن فكلامُ الله المُنزَل ضمن الدّفَتين يُعدّ مرتبةً نازلةً و كلاماً حادثاً من ذاك النور الأصيل و الكلامِ الحقيقيّ القديم، و لا محذور عقلاً بأن يَخلُقَ تعالى نوراً قديماً قد تواجَدَ بالعَرَض كنور النبيّ الخاتم صلوات الله عليه وآله، فلا يستتبع الشرك في وجود الله تعالى القديم إذ المفترض أن ذاك النورَ الأوّلَ يعدّ مخلوقاً عرضيّاً قديماً لا ذاتيّاً.

استحكام البيانات الماضية بمقولة السيد الخمينيّ

و مشياً في آفاق هذه الكلمات العميقة، قد تحدّث السيد الخمينيّ بأن التكلم من الصفات الذاتية لله تعالى ـو هو الشق الأول المذكورـ قائلاً:

أمّا فساد قول المعتزلة: فلأنّ إحداث الكلام المتجدّد و المتصرّم بلا وسطٍ، مستلزم لمفاسد كثيرة، منها التجدّد في صفاته و ذاته، تعالى عنه. و قضيّةُ إيحاءِ الوحي و إنزال الكتب إلى الأنبياء و المرسلين عليهم السلام من العلوم العالية الربّانية التي قلَّما يتّفقُ لبشر أن يكشف مَغزاها (معنى الوحي حيث لم يكن من نمط الكلمات المادية) كتكلّمه تعالى مع موسى عليه السلام، و لقد أشار إلى بعض أسرارها قوله تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ»[5]

و قوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (فليس بحروف ماديّة ضمن كتاب مادّيّ)* لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»[6] و قوله تعالى: «إِنْ هُوَ (القرآن) إِلَّا وَحْيٌ يُوحى* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى* وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى* ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى* فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى* فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى* ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى»[7] إلى آخره، فأشار إلى كيفية الوحي و نزول الكتاب بوجه موافق

للبرهان (فهي حقائق ما وراء الألفاظ المادّية) غير مناف لتنزيهه تعالى عن شوب التغيّر، و وصمة الحدوث. و لعمري إنّ الأسرار المودعة في هذا الكلام الإلهي المشير إلى كيفية الوحي، و دنوّ روحانيّة رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى مقام «التدلّي» و المقام المعبّر عنه ب «قاب قوسين» و ما يشار إليه بقوله «أَوْ أَدْنى»[8] ثمّ تحقّق الوحي، ممّا لم يصل إليه فكر البشر إلّا الأوحدي الراسخ في العلم بقوّة البرهان المشفوع إلى الرياضات و نور الإيمان. و المقصود: دفع توهّم كونه تعالى متكلّماً بإيجاد الكلام المتصرّم في شجرة أو غيرها، أو بقيام التكلّم به قياماً صدورياً، و الفرق بيننا و بينه: أنّ إيجادنا بالآلة و إيجاده بغيرها؛ فإنّ ذلك أيضاً ملازم للتصرّم و التغيّر في الصفات و الذات. و ما قرع سمعك من بعض أصحاب الحديث[9] اغتراراً بظواهر بعض الأحاديث من غير الغور إلى مغزاها- من كون إرادته تعالى حادثة مع الفعل، و من صفات الفعل ممّا يدفعه البرهان المتين، جلّ جنابه تعالى أن يكون في ذاته خلواً عن الإرادة التي هي من صفات الكمال للموجود بما أنّه موجود، و كونه كالطبائع في فعله الصادر من ذاته؛ للزوم التركيب في ذاته، و تصوّر ما هو الأكمل منه، تعالى قدسه.[10]

وِجهةُ نظر الأسفار في هذا المضمار

و في جادّة البحث نَستحضِرُ مقالةَ الأسفار أيضاً، حيث يقول:

الفصل في تحصيل مفهوم التكلم: اعلم أن التكلّم مصدرُ صفةٍ[11] نفسيّةٍ مؤثرةٍ لأنه مشتق من الكلم و هو الجرح و فائدته الإعلام و الإظهار فمن قال إن الكلام صفة المتكلم[12]

فحصاد الحوار هو أن الكلام المادّيَّ يُعدّ إحدى حصص الكلام الحقيقيّ إذ الكلام الحادث يُشير إلى ما في الضمير فيُعربُ عن المعنى المُخبّأ في النفس، لأنّ إن الكلام الحقيقيّ ذو سعةٍ معنائيّةٍ ما وراء اللفظ، ولهذا يَندرِجُ الكلامُ الإلهيُّ ضمن صفات الذات من هذا البُعد -و هو الشقّ الأول المذكور- حيث إنه تعالى قبل إرسال الرسل كان متكلّماً بينما لم يتواجد أيّ مخلوق متكلّمٍ آخر ثم خلق الخلق فأوجدَ لهم الكلام الحادث، وهذا ما أعلنته الرواية التالية:

«إِنَّ الْكَلَامَ صِفَةٌ مُحْدَثَةٌ لَيْسَتْ بِأَزَلِيَّةٍ، كَانَ اللّٰهُ - عَزَّ وَ جَلَّ - وَ لَا مُتَكَلِّمَ».

إذن، فالكلمات الصادرةُ للأنبياء أو للبشر تُعدّ كلماتٍ حادثة كاشفةٍ عن المعاني المستودَعةِ في ذات الله -أي أم الكتاب- و لهذا يُصبُح الكلام الإلهيُّ قديماً في ذاته لأنه تعالى قد كان منذُ الأزل دائمَ الفيض على المستفيض الأوّل -غير الزمانيّ- و هو النور الأوّل -أي خاتم الأنبياء- ثم أوجدَ الكلام الحادثَ ضمن مرتبة منخفِضة تناسقاً مع الدنيا المادّية، و هذا ما توخّاه السيد الخمينيّ قائلاً:

و قال بعض أهل التحقيق[13]: إنّ إطلاقه عليه لقيام التكلّم به (فنفس الصفة قديميّة لا الكلام الفعليّ الموجَد لأنه في المرتبة النازلة فيختلف عن المرتبة العالية المستودع في النفس الإلهيّ) لا الكلام؛ قياماً صدورياً لا حلولياً، كما أنّ إطلاقه علينا أيضاً كذلك إلّا أنّ الفرق: أنّ إيجادنا بالآلة، دونه تعالى. و ذهبت الأشاعرة[14] إلى أنّ كلامه تعالى ليس من جنس الأصوات و الحروف، بل هو معنى قائم بذاته تعالى في الأزل، يسمّى الكلام النفسي، و هو مدلول الكلام اللفظي المركّب من الحروف، و منه الطلب القائم بنفسه، و هو غير الإرادة. و القول الحقّ الموافق للبرهان: أنّ إطلاق المتكلّم عليه تعالى ليس لذاك و لا لذا.[15]

---

[1] سورة النساء، الآية 164.

[2] سورة الشورى، الآية 50.

[3] الكافي (دارالحديث)، جلد: ۱، صفحه: ۲۶۱، 1387 ه.ش.، قم - ايران، مؤسسه علمى فرهنگى دار الحديث. سازمان چاپ و نشر

[4] علامه حلى، حسن بن يوسف. كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم. صفحه: ۲۸۹

[5] الشعراء(26): 193- 194.

[6] الواقعة(56): 77– 79.

[7] النجم(53): 4– 11.

[8] النجم(53): 9.

[9] انظر الكافي 1: 111– 112، التوحيد: 148، بحار الأنوار 4: 134– 147.

[10] الطلب و الإرادة، ص: 15، بل أوضح الآيات دلالةً على أن القرآن ليس لفظاً الآية التالية: ماكنت تدري ما الكتاب و لا الإيمان و لكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا.

[11] الإضافة بيانية هذا في المتكلم الإمكاني غني عن البيان و أما في المتكلم الوجوبي فلما كان تكلمه عين ذاته فهو مصدر لكل كلمة تكوينية فضلا عن اللفظية و تكلمه صفة نفسية أي نفس ذاته المتعالية مؤثرة لأن جميع الكلمات التامات و ما دونها آثار ذاته معربة عن الضمير الذي هو غيب الغيوب و من (علماء الكلام) قال تكلمه (الله) خالقيته للكلام إن أراد هذا الإعراب و بالكلام العقول التي هي الكلمات التامات لكان حسنا كما أن من قال بالكلام النفسي إذا أراد جامعية ذلك الوجود البسيط الأقدس جميع الكلمات بمصداق واحد بسيط لكان موجها.

[12] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ٧، صفحه: ٢

[13] انظر الحكمة المتعالية 7: 4، نهاية الدراية 1: 261– 268.

[14] شرح المقاصد 44: 146– 147، شرح المواقف 8: 93.

[15] الطلب و الإرادة، ص: 14